(١٣) العلماء ونُصح الحُكَّام

(نماذج من سير العلماء الربانيين)

د. صلاح سلطان:

العالِم عليه الشعور بالمسؤولية عن الكلمة التي يحملها وهي كلمة الله، وشعوره بالمسؤولية عن الأمة، وهذه الكلمة هي كما في قول الله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف:١٠٨]، فكل من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم لا بد أن يكون حاملًا للرسالة ومبلغًا للأمانة.

في نهاية قصة سيدنا يوسف عليه السلام، وهو رجل تعرض للسجن ظلمًا وعدوانًا وكان يرى البلد يتعرض للخراب، كان له موقف تظهر فيه مروءة العالِم الذي لم يُفكر في ذاته وفي الظلم الذي وقع عليه في هذه البلد، وكما قال الشاعر:

بلادي وإن جارت علي عزيزة *** وأهلي وإن ضنوا علي كرام

د. راغب السرجاني:

ومع أن هذا الشِعر كان لشخص يتحدث عن بلاده وأهله، أما يوسف عليه السلام لم تكن بلده الأصلي بل هذه البلاد اشترته بالمال ولم ترجعه إلى أهله وكان الظلم وقع عليه فيها، ومع ذلك لديه حبٌ الخير للبشر والأرض.

د. صلاح:

وهذا لأن المسلم العالِم الرباني لا يتمحور حول ذاته بل يُحَول الأزمة إلى فرصة، وهذا ما فعله سيدنا يوسف عليه السلام.

وأيضا ابن تيمية عندما دخل السجن كتب مؤلفات وكذلك الشهيد سيد قطب كتب ظلال القرآن في السجن وأصبح أول كتاب يترجم لكل لغات الدنيا ولعل السجن هو الذي ألقى إليه بهذه الظلال في القرآن الكريم.

في البداية قبل أن يُعرض عليه المُلك عاش لرسالته: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [يوسف:٣٩]

فهو يتصرف بشكل تلقائي لأداء الرسالة ولحمل الأمانة، وفي النهاية يتولى مسؤولية إدارة أزمة بما يرضي الله سبحانه وتعالى ولا ينتصر لنفسه مع أخوته الذين جاؤوا يقولون له: {فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا} [يوسف:٨٨]

ففي النهاية يقول: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف:١٠٨]

وهذه الطريقة التي نريد أن يَتقدم بها العالِم إلى الحاكم، لا لينفع نفسه بل لينفع بلده وأمته ولينفع الحاكم في آخرته وفي دنياه.

فهو تجرد لله سبحانه وتعالى ثم أصبح بعدها هو الملك المُطاع، وهذا النموذج هو ما نحتاج أن نكرره في واقعنا المعاصر.

أما أن يكون العلماء بعيدين ويلعنون الحكام فهذه حالة سلبية، وكذلك إن الحكام يتوجسون خيفة من العلماء فيأمروهم بأن يضعوا الأحكام على أهوائهم.

لكن الحالة الوسطى هي أن الحاكم هو الذي يحتاج لنصح العالِم والعالِم هو الذي يرى وجوب نصح الحاكم لعل الله أن يصلح بهما الأمة كلها.

د. راغب:

وفي قصة سيدنا يوسف عليه السلام لفتة تجمع هذا الأمر وهذا التوسط الرائع، فهو قدم النصح وزهد فيما لديه وقال بعزة العالِم: {فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إن رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} [يوسف:٥٠]

فلم يخرج للحاكِم يطلب ودَّه ولم يطلب إخراجه من السجن، لكنه قدَّمَ النصيحة متجردًا لله عزَّ وجلَّ، ولم يطلب ما في يد الحاكم حتى قدَّمه له الحاكم وخيَّره، فقال: {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [يوسف: ٥٥]

د. صلاح:

وهذه الخطوة بها ذكاء إيماني، فهو لم يَرِد إن يخرج لإدارة شؤون البلاد وعليه تهمة يذله بها أحد، إنما قبل إن يَتولى شيء قال: {فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إن رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} [يوسف:٥٠] وهنا قد خرج من القضية نظيفًا بكل عزة وكرامة وهذا ملمح طيب.

د. راغب:

تكلمنا عن العالِم سيدنا يوسف عليه السلام وأنه نَصَحَ الحاكِم وكانت النتيجة أن وصل يوسف عليه السلام للتمكين في الأرض: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف:٥٦]، فهنا كلمة الحق رَفَعت مِن قَدر يوسف عليه السلام في الدولة ومَكَّنَت له في الأرض،

ورأينا موقف العز بن عبد السلام وهو ينصح نجم الدين أيوب، فاستمع لنصحه نجم الدين أيوب، ورُفِعَ قَدر العز بن عبد السلام في البلاد.

لكن ليس الحال دائمًا على هذه الصورة، فالأصل في الأمور أنه إذا تَقدم العالِم للحاكم بنصحٍ تكون العاقبة نكالًا وعقاب وأزمة كبيرة جدًا تَحدُث للعالِم وقد يكون لأسرته أيضا، فكيف نُطَمّئِن العلماء أنهم إذا قالوا كلمة الحق وكان الثمن هو أخذ بيوتهم أو وظائفهم أو أرواحهم، فإن هذا الثمن بسيط جدًا بالقياس إلى رضا الله عزَّ وجلَّ؟

د. صلاح:

عَرَفْنا اللَّيالي قَبلَ مَا نَزَلَت بِنَا *** فلمَّا دَهَتْنَا لَمْ تَزِدْنَا بِهَا عِلْما

قال الله تعالى: {وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ} [غافر:٥]، أي يعتقلوه.

وقال: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} [الفرقان:٣١].

وقال: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال:٣٠].

وهناك الكثير من الآيات في القرآن تقول للعالِم عليك فقط الانشغال بدعوة الله ثم {إِن اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج:٣٨]

لا تشغل نفسك بنفسك فأنت تَدور مع الرسالة (ألا دوروا مع القرآن حيث دار لا مع الدولار أو الحاكم حيث دار)،

بل تدور مع الرسالة ومع القرآن وتدع أمرك كله للرحمن يدبره لك، قال الله تعالى: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} [الأحزاب:٣٩]

وقال بن تيمية: (سجني خلوة ونفيي سياحة وقتلي شهادة فماذا عساهم إن يفعلوا بنا؟)، وفي هذا القول راحة لعقل العالِم الرباني الذي نريد صناعته فلا يكون هناك ضغط على عقله.

أنا لدي، كعقلية باحث، حالة استقراء فأرى الذين يمشون في ركاب الاجتهاد التسويغي، استقراء لما يظهر لي من أمورهم وحياتهم، وأرى هؤلاء الصادقون الذين قال الله تعالى فيهم: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ} [الأحزاب: ٣٩]

فهؤلاء ماليًا وضعهم أفضل، لأن الله سبحانه وتعالى قال: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الحج: ٥٨]

وأدبيًا لهم في قلوب الناس مكانة كبيرة جدًا، فقد يكون العالِم مسجون ويخرج منه كلمات تدخل قلوب الناس أكثر من الذين خارج السجون.

ولدينا مثال هو الشهيد سيد قطب، وهنا أذكر أنني قابلت في هولندا الأستاذ عادل صلاحي، وهو من ترجم كتاب الظلال، يقول (بعد إن قتل الشهيد سيد قطب بأسبوع جاءني سيد قطب في المنام وقال لي أن الباكستانيين والأوربيون يحتاجون إلى هذا الكتاب، أي كتاب الظلال، فقمت من نومي وعزمت على ترجمته في ١٨ مجلد إلى اللغة الإنجليزية الراقية.

ويُذكر أن كلمات سيد قطب صارت مشاعل وألهبت مشاعر.

د. راغب:

إن أكثر ما جعل كلمات سيد قطب تنتشر بين الناس أنه مات من أجلها، وهو الذي قال: (ستظل كلماتنا عرائس من الشمع لا روح فيها ولا حياة، حتى إذا متنا في سبيلها دبّت فيها الروح وكتبت لها الحياة).

هذا هو المعنى يجب أن يصل إلى ذهن العالِم الذي يتمنى أن يكون عالمًا ربانيًا.

إن العلماء يرزقهم الله رزقًا حسنًا ويدافع الله عن الّذين آمنوا، لكن في نفس الوقت نرى بعض النماذج من تاريخ علمائنا فنرى من يمر بالأزمة ولا يخرج منها ويموت مضطهدًا أو معذبًا أو يموت مقهورًا في الظروف الصعبة.

أعتقد أن الذي يثبته على هذا الأمر أنه ينظر إلى ما هو أعظم من أن الله عزَّوجلَّ سيفَرِّج عنه في الدنيا ولكنه ينظر إلى أن الله عزَّوجلَّ سيفرِّج عنه في الاخرة وهذا أعظم وأجلّ.

إن العالِم إن نظر إلى ما في يد الله عزَّوجلَّ، وعَلِمَ إن هذه الدنيا مهما طالت فهي قصيرة وأن المال مهما كثر فهو قليل وأن هذه الدنيا مهما كان فيها بهرجة فهي تافهة لا وزن لها، إن عَظُمت الآخرة في عينيه وقلَّت الدنيا في عينيه، حتى وإن ضاعت منه ولن تعود إليه ولن يُمكَّن كما مُكِّنَ يوسف عليه السلام ولن يخرج من الأزمة كما خرج العز بن عبد السلام، وسيعيش معذبًا مطاردًا، وما الضير في ذلك؟ وما الألم في ذلك؟ إن قُرِنَ بنعيم الجنة وغمسة واحدة في الجنة ينسى بها كل هذا الألم.

د. صلاح:

«يؤتى بأنعمِ أَهلِ الدُّنيا من أَهلِ النَّارِ يومَ القيامةِ فيُصبغُ في النَّارِ صبغةً ثمَّ يقالُ يا ابنَ آدمَ هل رأيتَ خيرًا قطُّ هل مرَّ بِك نعيمٌ قطُّ فيقولُ لا واللَّهِ يا ربِّ ويؤتَى بأشدِّ النَّاسِ بؤسًا في الدُّنيا من أَهلِ الجنَّةِ فيُصبَغُ صبغةً في الجنَّةِ فيقالُ لهُ يا ابنَ آدمَ هل رأيتَ بؤسًا قطُّ هل مرَّ بِك شدَّةٌ قطُّ فيقولُ لا واللَّهِ يا ربِّ ما مرَّ بي بؤسٌ قطُّ ولا رأيتُ شدَّةً قطُّ»

الراوي: أنس بن مالك -المحدث: مسلم

المصدر: صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم: ٢٨٠٧

خلاصة حكم المحدث: صحيح

د. راغب:

ففي هذه اللحظة ينسى كل هذا الشيء، إذا كَبُرَت هذه المعاني في عين العالِم صغرت في عينه مقاليد الحكام، والسلاطين والظلمة والطواغيت والفراعين في كل مراحل التاريخ.

إذًا علينا أن نُعلي في عين العالِم قَدر الله عزَّوجلَّ وما سيعطيه الله ربنا عزَّوجلَّ في الآخرة ،عندها تهون هذه المحن،

عندما نرى العز بن عبد السلام يقف في دمشق ويجد أن الصالح اسماعيل، وهو كان أخ الصالح نجم الدين أيوب ولكن شتان بينهم، كان فاسق وكان يبيع السلاح للصليبيين في زمن الحرب مع المسلمين ويعلم أن هذا السلاح سيستخدم ضد المسلمين، فقام العز بن عبد السلام، وكان قاضيًا في دمشق وخطيبًا في المسجد الأموي، يخطب في الناس ويقول أن هذا البيع حرام وأن أي فرد من الشعب يبيع السلاح للصليبيين فهذا يخالف شريعة الله سبحانه وتعالى ويصدر قانون بذلك يخالف به قانون الدولة ويخالف به القانون الوضعي الذي وضعه الصالح إسماعيل والذي يخالف قانون رب العالمين سبحانه وتعالى، ما تردد العز بن عبدالسلام في هذا الأمر وساوموه ثم عزله عن منصبه وسجنه في دمشق قبل أن يذهب إلى القدس.

ثم بعد ذلك وهو في السجن أرسل رسائله القيمة الي الشعب من داخل السجن، وكانت هذه الرسائل تفعل مفعولًا أكبر بكثير ممن تَقَلَّدَ المناصب الحكومية الكبيرة.

فضَجَّ منه الصالح إسماعيل فأرسله إلى القدس نفيًا وحبسه في القدس، ومرت الأيام وذهب الصالح إسماعيل للقدس وكان إلى جانب خيمة المحبوس، العز بن عبدالسلام، الذي ظَنَّ أنه في أزمة، فكان يقوم الليل ويقرا القرآن بصوتٍ عالٍ فسمعه ملك الفرنجة ،وقال مخاطبا الصالح اسماعيل،: من هذا؟، قال له: هذا عالم سجنته لأجلكم، قال له: لو كان عندنا لغسلنا قدميه وشربنا ماءها.

انظر إلى هذا الذل الذي كتبه الله على الصالح اسماعيل وهو يسمع هذه الكلمات من ملك الفرنجة!

ثم ذهب رجل من طرف المالك الصالح اسماعيل إلى العز بن عبد السلام فقال: إنه على استعداد في نظير إن تقبل يده.

قال: يا غلام أنتم في وادٍ ونحن في وادٍ ،والله ما أقبل أن يُقبّل هو يدي يا مسكين.

انظر إلى العز بن عبد السلام يرى بهذا الشموخ وهو في السجن، مكانته كعالم وحامل للواء الإسلام وخليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكـ وارث للأنبياء،

د. صلاح:

نحن الآن في القرن ٢١ ونتكلم عن العز بن عد السلام، وأنت كتبت عنه في كتابك عن غزو التتار وفَصَّلتَ في قصته بشكل متميز جدا، وكذلك أخونا علي الصلابي في فقهاء النهوض تكلم عنه كلامًا رائعًا، وأيضا الأستاذ الطبَّاع عندما حَقَّقَ كتاب شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال للعز بن عبد السلام، فأينما تذهب تجد الحديث عن العز بن عبد السلام، فكم من الحسنات يأخذها الآن؟!

و هل كل أم وأب يحلمون أن يحمل ولدهم هذا الاسم "سلطان العلماء" وأن يقول كلمة الحق ويبتلى ويمر بما مرَّ به العز بن عبد السلام، ألا يحلم كل فرد منا أن يكون كسلطان العلماء العز بن عبد السلام هذا النموذج!

و انظر إلى سيدنا خبيب بن عدي عندما قالوا له سَنُقطع جسدك فيقول هذه الكلمات التي أتمنى أن يتربى عليها كل عالِم:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا *** عَلَى أي جَنْبٍ كَانَ في اللهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ في ذَاتِ الإلهِ وإنْ يَشَأ *** يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شَلْوٍ ممَزَّعِ

وهذه كلمات شيخنا العلامة القرضاوي عندما كان في سجون عبد الناصر:

ضَعْ فِي يَدَيَّ الْقَيْدَ، أَلْهِبْ أَضْلُعِي *** بِالسَّوْطِ، ضَعْ عُنُقِي عَلَى السِّكِّينِ!

لَنْ تَسْتَطِيعَ حِصَارَ فِكْرِيَ سَاعَةً *** أَوْ نَزْعَ إِيمَانِي وَنُورِ يَقِينِي!

فَالنُّورُ فِي قَلْبِي، وَقَلْبِيْ فِي يَدَيْ *** رَبِّي، وَرَبِّي نَاصِرِي وَمُعِينِي!

سَأَعِيشُ مُعْتَصِمًا بِحَبْلِ عَقِيدَتِي *** وَأَمُوتُ مُبْتَسِمًا لِيَحْيَا دِينِي!